



## عواطف الحياة

ووجوب الحرص عليها

عنوان المناظرة هو: «يجب أن نحرص على عواطف الحياة» وهل نستطيع أن نجد شيئاً غير العواطف، يستحق الحرص عليه؟ إنني لأنظر للطبيعة الانسانية، فأجدها قبل أن يقوم علم النفس على دعائم ثابتة، قسمت إلى ما يسمى بالأمزجة Temperaments ولا يزال بعض علماء النفس المحدثين يقسمون الخصائص الانسانية الاصلية Imate إلى أنواع من هاته الأمزجة، وإعنا على شكل علمي أثبت وأدق .

اليكم على سبيل المثال بعض هذه التقاسيم : تقسيم هيباتز : عصبي ، حساس ، بارد ، غضوب ناثر ، على الحياء ، غامل . . . وقد نال هذا التقسيم شهرة خاصة ، وميزته أنه يثني الطبيعة الانسانية على العاطفة ودرجاتها ، ولا ذكر للعقل والتعقل فيها .

وقد كان التقسيم القديم مشابهاً لهذا ، وتعرفونه فهو دمري ، وبارد ، وسوداوي ، وغضوب ، وديونيسيقي ، أو إلى فريق إلهي العاطفة ، وإلى فريق جامع العاطفة . . . فالتقسيم حتى عند نيتشه قد بنى الطبيعة الانسانية على العاطفة ولم يشر إلى العقل . . .

ومن الطريف أن أذكر رأي إيزروجنش فقد قسم الأول الناس إلى لونيين وشكليين . أما اللونيين فتمتص تقومهم بصورة بلونها ، بينما الشكليين يقفون على الهامش ، ويأبرون الاندماج . . . أي يظل الآلون غريباً عنهم . . . وتقسيم جاينش لا يخرج عن هذا ، بل يوضحه . فهو يقسم الناس قسمين : قسم يجمع ، وقسم يفصل Integrate and desegregate . . .

فالاول يمتص المدركات النسبة كلها ويتدمج فيها ، والثاني يقف بمفردها أو عليها

وأما يونج فاسيه المشهور في كتابه المعروف Psychological types فيقسم الناس إلى باطنيين Introvert وخارجيين Extrovert . ويقسم الباطنيين أربعة أقسام : من حيث التفكير ، والشعور ، والحساسية ، والالهام ، والخارجيين إلى نفس الأقسام . فيلاحظ أن التفكير في النوعين يمثل اثنين من ثمانية أقسام . والباطني يدين بما يجيش في ذاته ، والخارجي يدين بما يتلقاه من العالم الخارجي . . . .

من هذا يتضح أن الاختلاف في الطباع البشرية يقوم على اختلاف العواطف أو بالأصح على طريقة استعمال هاته العواطف . فإذا تقدمنا في علم النفس الحديث ، وجدناه ينير مسائل فلسفية يريد أن يضمها على أصل ثابتة . ما هي العاطفة ، وما هو العقل ؟ وهل هناك عقل حقيقة ؟ إن العاطفة لاهك في وجودها بتاتا بدليل أن الانسان لا يستطيع أن يشاهد شيئاً أو يلمس شيئاً بدون أن يكون له كنه آخر غير مجرد الواقع الملموس . . . . ذلك الكنه الآخر هو ما نسميه في علم النفس بالشعور ، أو الاحساس Feeling طيباً أو رديفاً ، ساراً أو غير سار ، وهو أول خطوة نحو رأي عمل . فإذا اصطعب ذلك الشعور بتخيرات بدنية كالإسراع النبض ، أو الارتجاف ، يسمى انفعالاً ، فإذا تجمعت الانفعالات حول شيء معين سميت عاطفة ، فيشترط إذن في العاطفة أن تنصب على هدف معين بخلاف الشعور أو الإحساس فقد يكون شيئاً غامضاً ، وهناك من العواطف ما هو أولي ، ومنها ما هو مركب ، ومنها ما هو مشتق ، فالأولي : كالغضب ، والمركب كالحب ، أو الرعب ، والمشتق كالأمل . . . فيلزم في العاطفة إذن (١) : تغيرات فيسيولوجية (٢) أن تنصب على هدف معين (٣) أن تكون مستغرقة لكل الكيان أي ان تكون جوعاً كاملاً ، أو حباً كاملاً ، أو هوقاً كاملاً . . . .

ولقد سمي علم النفس في أول الأمر علم الروح ، ولما كانت الروح مشكوكاً في أمرها ، سمي علم النفس بعلم العقل ، ووجد أن العقل — بالرغم مما بذله الفلاسفة أمثال ديكارت في إثبات وجوده — لا يزال شيئاً مجهولاً ، ولذلك سمي علم النفس ، أو انصب بالأكثر — على آثار ذلك « العقل » التي تظهر في السلوك الانساني ، Behaviour ، وأريد أن أذكركم من أن تعتقدوا أن هذا هو المذهب « السلوكي » الذي يتعبر من النفس الانسانية وينكر عليها كل شيء إلا السلوك الآلي المحض . . . .

يعني علم النفس بدرس كيفية السلوك عند كل منا ، والمبتدئون فيه يعرفون أن السلوك عند الجميع يتلخص في المراحل الآتية : الشعور ، العاطفة ، استيقاظ الغريزة ، التفكير ، العمل . ولقد كان هذا التقسيم معروفاً للفلاسفة من قديم . وكان الناس في رأي أ فلاسوفن يقسمون بحسب ما يتقنون من ذلك ، أو بمقدار ما يحتفظون بترتيب ذلك البرنامج . فإن الفلاسفة مثلاً يتقنون عند مرحلة العمل ، والشعراء لا يتجاوزون الشعور ، والعاطفة ، والغريزة ، والقواد والعالمون يتخطون مرحلة التفكير ، أو يختصرونها ...

ولقد وصلنا فيما سبق عند شرح معنى العاطفة ، فعلمنا الآن أن لشرح علاقتها بالغريزة . فيكفي أن نقول أن العاطفة هي الطاقة البشرية Energy ، أي الفحم أو البنزين الذي يسير الآلة أو القاطرة . وأما الغريزة فلاصقة بها ، وهي التي تشعل النار فيها ، وكذلك هي التي تهيب لها طريق العمل ، وتأخذ بيدها . فلكل انفعال غريزة تصاحبه ، فغريزة المحافظة على الذات مصاحبة لعاطفة الخوف ... وهكذا ... ولقد تناقش علماء النفس وتحدثوا طويلاً في كيفية حدوث العاطفة ، فأكثرم ردها الى حمل فيسيولوجي محض . ولقد جاء قول ويليم جيمس عميراً حين قال : نحن لا نسكي لاننا نحزن ، بل نحزن لاننا نسكي . . . . . يعني بذلك ان العمل الفسيولوجي المسئل في إفراز الدموع هو الذي يسبق عاطفة الحزن . والواقع انهما متلازمان ، بحيث لا يمكن التثبت من أيهما حدث أولاً ، ولكن جيمس يريد أن يؤكد أهمية العمل الفسيولوجي على كل حال ... وإحداث العاطفة على هامته المصورة الميكانيكية ، أدنى الى قيام نظريات محض وجود العقل وتجهلنا نستعني بالتفسير الميكانيكي عن وجوده . فذا سئل أحد العلماء عن الامومة التي تحمل الدباجة تحتضن البيضة . قال : ليس هناك ما يسمى الامومة ، فان الاتهاب الذي في شرح الدباجة هو الذي يدعوها لرقاد على البيضة ، بدليل أنها معها عصت يمكن أن تحيرها على الرقود بقليل من التقليل على النرج . ا . قيل وما هي الغريزة ، أجابوا : انه عمل المكاسي محض ، بدليل ان حركات الطير المذبوح يصعب أن تعرف أي ألم ، أم حركات عضلية دفءاً عن النفس ، قيل : وما هو الكلام أليس له اتصال بالتفكير ؟ قيل كلا ؟ بل التفكير حركة حاضرة عضلية صامتة subsonic words قيل : وما الارادة ، هل تنكرون وجودها كبدليل على وجود ما يسمى العقل . . . . . قيل : كلاً ذلك ان صالحت الكبر بما على جزء

المخ الذي يرفع التبراع ، قال لك رافع الذراع إنه « يشعر إنه يقوم بذلك من تلقاء نفسه ». قيل : وما هو العقل إذن ؟ قالوا : أعما هو شعور المادة بنفسها ، Awareness أو بعبارة أخرى «وعي المادة بوجودها ». أجاب آخرون : وما رأيكم في الوعي الباطن ، أجاوبوا : إن هذا يختلف اختلافاً بيناً عن العقل الراعي . بينما الوعي بتفكيره وإرادته وتعليله مشكوك فيه ، فإن العقل الباطن هو مركز العاطفة والغريزة ، وهو الذي يسيطر على بئس من أفعالنا العادية ، ولا سبيل إلى إنكاره بثباتا بدليل أن الانسان يمكنه أن يرى بعقله الباطن إذا أغلق عينيه .

ولقد وصف جود القاطرة الانسانية وصفاً جيلاً مقنعاً . قال : إن القاطرة الانسانية هي وقود (العاطفة) وسائق (الذات الانسانية) وكشاحة (الارادة) .

ونحن لا نعرف ماهي « الذات » بالضغط ، وأما نحن نعلم انها هي التي تشمل الوقود وتضبط الكشاحة أي (الفرملة) . ولكن الآلة يمكنها أن تعمل بمجرد اشغال الوقود ، والعكس مستحيل . قيل : ولكن القاطرة بدون السائق والفرامل تخرج عن الخط وتحطم ما أمامها . قال المنكرون للعقل ، إن التفكير ما هو إلا عادات نعتادها ، وخطط ترسم في النفس وتتخذ سبلاً محددة معبدة .

ولكن المحذرين قالوا بل إن هناك من الاشياء ما لا تستطيعون تفسيره ، وذلك هو ان العقل الذي تكرونه يصنع أربعة أشياء لا تستطيعون أن تطلروا وجودها بدون أن تؤمنوا بوجوده ، ألا وهي ربط الأشياء ، واختيارها ، وترتيبها ، والاستنباط منها . هذه الخصائص الثلاث هي التي تميز الانسان من الحيوان ، أي تميز العقل الكامل من بضعة خصائص حيوانية يبدو عليها تماثيل العقل وليست منه .

إن الذي أدنى إلى إنكار العقل هو «درون» فقد كانت نظريته تقوم على السبب والسبب . فلما جاء تلميذه رجسون أنكر ذلك الترتيب الميكانيكي ، ولكنه أعطى الأفضلية للعقل ، وأما نثي ، فوق العقل يسمى البصيرة . والبصيرة بلا جدال تنبع من الفرائز ، فهي لصيقة بالعاطفة . ولقد أكد رجسون ، وأنا من رأيه ، أن الانسان اخترع العقل كما اخترع الكلام ، لكي يمكنه التعديد والاتكاء في العالم السريع الدوار المتلاطم ، كالخائض لا بد أن يقطع الثوب لكي يحبسه ، وكما نضع ثيابنا على المشاجب لكي نحميها في اليوم التالي . وقد اخترعنا

الكلام لنفس السبب ، أي لكي نميز هذا الشيء من ذلك ...  
وكيف جاء العقل ؟ ما العقل غير نوع مخصص من الفريزة ، ووجه من أوجهها المديدة ،  
ميزته ميزة الترجمان أو دليل الآثار. أما كون الحياة تسير على هذا خطأ . وأما كون النفس يسير  
على هدى العقل فتحييل .

أما كون العقل أماد الانسانية خطأ ، لأنه معرفة العملي ونسب بالانسانية في ناحية ،  
هي فهم أسرار المادة ، ووقف به في ناحية أخرى ، وهي فهم أسرار النفس . لأن العقل  
ليس السبيل الى فهم النفس وأغوارها ، فصرنا اليوم كما ترون مادة تتقدم وروحانية تتأخر .  
ولقد تدخل العقل العملي في الأدب فإتلاه بالتحليل و « التفصيص » . ففعل الكل الجليل  
أجزاء منفصلة مهلهة كهيئة انتشاريح .

تسألوني وكيف نمنع بالمعاطفة اذا جمحت ؟ أتتركها كالجواد الذي لا شكيمة له ؟  
أقول ان العواطف تختلف . فأغلب العواطف كلما زادت حدة ، قل الفعل الذي يعقبها ،  
ما عدا مألوفة الحب التي تزداد ميلاً الى العمل ، كلما زادت اتفصلاً . والفرق التي تلجم بها  
المعاطفة هي :

- (١) إيجاد عاطفة تجاه عاقبة . كاللين ، علاجه الخوف من كلام الناس .
- (٢) التوقف ذلك الموقف العملي الذي شرحت Rationalisation أي التعليلية ، وهو  
يقود لتحليل في كل موقف ، وانسرف في ذلك لأن قلب العقل على المعاطفة ، بل في أن كل  
شخص يتدمج ويبدى اهتماماً « بشرح الموقف » يهون عليه الموقف .
- (٣) مجتهد في الاتصاف Detachment ، وهي طريقة شرقية ، أي ان الانسان يتخلص  
من متاعب الجسد والأرض بالاتجاه الى الله . وان الصلاة والوضوء فيها ذلك الاتصاف  
الذي أخيه ، والذي يسبب هدوء القلب واختمشان البال . أي لا تؤمن في الحياة بفائدة العقل  
الإلا كما تؤمن بفائدة الملح للحساء . ولا أنسى قول جيت لهليده إيكريمان :

يجب أن « تفكر بالقلب » ...

وخاتماً أرجو أن أكون قد وصحت وجهة نظري كما أحب والسلام .

ابراهيم ناجي